



الكرسي الرسولي

اليوم العالمي الرابع والعشرون للمريض

الوثوق بيسوع الرحيم على مثال مريم

"مهـما قال لكم فافعلوه" (يو ٢، ٥)

أيها الإخوة والأخوات الأعزاء،

يُقدِّم لي اليوم العالمي الرابع والعشرون للمريض المناسبة لأكون بقرىكم بشكل خاص، أيها الأشخاص المرضى الأعضاء، ويقرب الذين يعتنون بكم.

وإذ سيحتفل بهذا اليوم العالمي رسمياً في الأرض المقدسة، أقترح هذه السنة أن تتأمل بالرواية الإنجيلية لعرس قانا (يو ٢، ١-١١)، حيث صنع يسوع أول معجزة له بفضل تدخل أمه. وبالتالي فإن الشعار المختار – الوثوق بيسوع الرحيم على مثال مريم: "مهـما قال لكم فافعلوه" (يو ٢، ٥) يندرج جيداً داخل اليوبيل الاستثنائي للرحمة. إن الاحتفال الافتخارستي الرئيسي لهذا اليوم سيقام في الحادي عشر من فبراير / شباط 2016، الذكرى الليتورجية للطوباوية مريم العذراء سيده لورد، وتحديدًا في الناصرة، حيث "الكلمة صار بشراً وسكن بيننا" (يو ١، ١٤). في الناصرة بدأ يسوع رسالته الخلاصية، ناسياً لنفسه كلمات النبي أشعيا كما يشير الإنجيلي لوقا: "رُوحُ الرَّبِّ عَلَيَّ لِأَنَّهُ مَسَحَنِي لِأَبَشِّرَ الْفُقَرَاءَ وَأَرْسَلَنِي لِأَعْلِنَ لِلْمَآسُورِينَ تَخْلِيَةَ سَبِيلِهِمْ وَلِلْعُمَيَانِ عَوْدَةَ الْبَصَرِ إِلَيْهِمْ وَأَقْرِجَ عَنِ الْمَظْلُومِينَ وَأُعْلِنَ سَنَةَ رُضَا عِنْدَ الرَّبِّ" (لو ٤، ١٨-١٩).

إن المرض، ولاسيما المرض الخطير، يضع الحياة البشرية في أزمة على الدوام ويحمل معه تساؤلات تحفر في العمق. قد تكون اللحظة الأولى تمرّدًا أحيانًا: لماذا حصل هذا الأمر لي أنا بالذات؟ وقد يشعر المرء باليأس ويفكر بأن كل شيء قد ضاع وبأنه لم يعد هناك معنى لأي شيء...

في هذه الأوضاع، يتعرّض الإيمان بالله للامتحان من جهة وفي الوقت عينه يظهر قوته الإيجابية بكاملها. ليس لأن الإيمان يجعل المرض والألم يختفيان أو الأسئلة التي تثيق عنهما؛ وإنما لأنه يقدّم قراءةً يمكننا من خلالها أن نكتشف المعنى الأعماق لما نعيشه؛ قراءةً تساعدنا لنرى كيف بإمكان المرض أن يصبح الوسيلة للوصول إلى قرب حميم من يسوع الذي يسير بجانبنا، حاملًا الصليب. وهذه القراءة تعطينا إياها مريم الأم، الخيرة في هذا المجال.

في عرس قانا، مريم هي المرأة المهمة التي تتبّه لمشكلة مهمّة جدًّا للعروسين: نغد الخمر، علامة الفرح والعيد. فمريم تكتشف الصعوبة، وتأخذها بنوع ما على عاتقها، وتكثّم، تصرف بسرعة. لم تقف مكتوفة اليدين، كما وأنها لم تُصَيِّع وقتها في الحكم على الآخرين، بل توجّهت إلى يسوع وعرضت عليه المشكلة هكذا كما هي: "ليس عندهم خمر" (يو ٢، ٣). وعندما قال لها يسوع أنه لم يحن الوقت بعد ليظهر نفسه (را. الآية ٤)، قالت للخدم: "مهـما قال لكم

٢ فافعلوه" (الآية ٥). فأتَمَّ يسوع عندها المعجزة محوًّا كمية كبيرة من الماء إلى خمر، خمر يظهر سريعاً أنه الأفضل في العيد كله. ما هو التعليم الذي يمكننا أن نستخلصه من سرِّ عرس قانا لليوم العالمي للمريض؟

تشكّل وليمة عرس قانا أيقونة للكنيسة: في الوسط نجد يسوع الرحوم الذي يتمم الآية، وحوله الرسل، بواكير الجماعة الجديدة؛ والقرب من يسوع وتلاميذه نجد مريم، الأم الحكيمة والمصلية. فمريم تشارك في فرح الناس العاديين وتساهم في زبافته؛ تشفع لدى ابنها من أجل خير العروسين والمدعوين كافة. وبسوع لم يرفض طلب أمّه. كم من الرجاء يحمل هذا الحدث لنا جميعاً! لدينا أمٌ عناها ساهرتان ومحبتان، تماماً كابنها، وقلبها الوالدي يفيض بالرحمة مثله أيضاً، وبداها تريدان المساعدة مثل يدي يسوع اللتين كانتا تكسران الخبز للجائع وتلمسان المرضى فتشفيهم. هذا الأمر يملؤنا ثقة ويفتحنا على نعمة المسيح ورحمته. إن شفاعة مريم تجعلنا نخبر العزاء الذي من أجله، بارك بولس الرسول الله قائلاً: "تبارك الله أبو ربنا يسوع المسيح، أبو الرأفة وإله كلِّ عزاء، فهو الذي يعزينا في جميع شدائدنا لنستطيع، بما تلقى نحن من عزاء من الله، أن نعزي الذين هم في آية شدة كانت. فكما يفيض علينا آلام المسيح، فكذلك بالمسيح يفيض عزائنا أيضاً" (٢ قور ١، ٣ - ٥). مريم هي الأم "التي تعزّت" وتعزي أبناءها.

في قانا، تبرز الملامح المميزة ليسوع ولرسالته: فهو الذي يساعد من هو في ضيق وعوز. وسوف يشفي بالفعل، في خدمته المسيحانية، العديد من الأمراض والعلل ومن الأرواح الخبيثة، وسيهب البصر للعميان، وسيجعل العرج يمشون، وسيعيد الصحة والكرامة للبرص، وسيقيم الموتى وسيعلن البشري السارة للفقراء (را. لو ٧، ٢١ - ٢٢). إن طلب مريم خلال وليمة العرس والذي أوحى به الروح القدس إلى قلبها الوالدي، لا يظهر فقط سلطان يسوع المسيحاني، بل رحمته أيضاً.

في اهتمام مريم ينعكس حنان الله. وهذا الحنان نفسه يظهر في حياة أشخاص كثيرين يتواجدون بالقرب من المرضى ويدركون احتياجاتهم، حتى تلك التي يصعب إدراكها، لأنهم ينظرون بأعين ملأى بالمحبة. كم من مرة يوضع بين يدي العذراء تضرع أم إلى جانب سرير ابنها المريض، أو ابن يعتني بوالده المسنّ، أو حفيد يتواجد بالقرب من جدّه أو جدّته! فلأعزائنا المتألمين بسبب المرض، نطلب الصحة أولاً؛ ويسوع نفسه قد أظهر حضور ملكوت الله خاصة من خلال الشفاءات: "اذهبوا فأخبروا يوحنا بما تسمعون وترّون: العميان يُصرون والعرج يمشون مشياً سوياً، البرص يبرأون والصم يسمعون، الموتى يقومون" (متى ١١، ٤ - ٥). لكن المحبة التي ينعشها الإيمان تجعلنا نطلب من أجّله ما هو أعظم من الصحة الجسدية: نطلب سلاماً، طمأنينة حياة تنطلق من القلب وهي عطية من الله، ثمرة الروح القدس التي لا يرفضها الآب أبداً للذين يسألونه إياها بثقة.

في مشهد قانا، وإضافة إلى يسوع وأمّه، يوجد أولئك الذين يدعون "الخدم"، ويتلقون من مريم هذا التوجيه: "مهما قال لكم فافعلوه" (يو ٢، ٥). بالطبع إن المعجزة تحدث بفضل عمل المسيح؛ ولكنه يريد أن يستعين بمساعدة الإنسان لإتمام الآية. لقد كان بوسعه أن يظهر الخمر فوراً في الأجران، لكنه يريد الاعتماد على تعاون الإنسان ويطلب من الخدم أن يملأوها ماءً. كم هو ثمين ومقبول عند الله أن نكون خداماً للآخرين! فهذا الأمر يجعلنا، وأكثر من أي شيء آخر، شبّهين بيسوع الذي "لم يأت ليخدم، بل ليخدم" (مر ١٠، ٤٥). إن هذه الشخصيات المجهولة في الإنجيل تعلّمنا الكثير. فهي لا تطيع فقط، بل تطيع بسخاء: تملأ الأجران إلى أعلاها (را. يو ٢، ٧). تثق بالأم، وتعمل فوراً وبشكل جيّد ما يُطلب منها، بدون تذمر، وبدون حساب.

في هذا اليوم العالمي للمريض، يمكننا أن نطلب من يسوع الرحيم، وشفاعة مريم أمّه وأمانا، أن يهبنا جميعاً الاستعداد الدائم لخدمة المحتاجين، لاسيما أخوتنا وأخواتنا المرضى. قد تبدو هذه الخدمة متعبة وشاقة أحياناً، بيد أننا واثقون بأن الرب لن يتوانى عن تحويل مجهودنا البشري إلى ما هو إلهي. نحن أيضاً باستطاعتنا أن نتحول إلى أياد وأذرع وقلوب تساعد الله على القيام بعجائبه، التي غالباً ما تكون خفية. بإمكاننا نحن أيضاً، الأصحاء والمرضى، أن نقدّم أتعابنا وآلامنا على غرار المياه التي ملأت الأجران في عرس قانا وتحولت إلى الخمر الأطيب. من خلال تقديم المساعدة المتواضعة للمتألم، كما في حالة المرض، نحمل على أكتافنا الصليب اليومي ونتبع المعلم (را. لو ٩، ٢٣)؛ وإذا كان اللقاء مع المريض يبقى لغزاً مستمراً، فيسوع يساعدنا على الكشف عن معناه.

إذا عرفنا كيف تتبع صوت التي تقول لنا أيضًا "مهنا قال لكم فافعلوه"، فيسوع سوف يحول دوماً مياه حياتنا إلى خمر فاخر. هكذا سيساعد هذا اليوم العالمي للمريض، والذي يحتفل به رسميًا في الأرض المقدسة، على تحقيق الأمنية التي عبرت عنها في رسالة إعلان اليوبيل الاستثنائي للرحمة: "فلتتمكّن هذه السنة اليوبيلية المعاشة في الرحمة من تعزيز التلاقي مع اليهودية والإسلام ومع باقي التقاليد الدينية النبيلة الأخرى؛ ولتجعلنا منفتحين أكثر على الحوار من أجل بلوغ مستوى أفضل من التعارف والتفاهم المتبادل؛ ولتزل كل شكل من أشكال الانغلاق والاحتقار ولتنبذ كل شكل من أشكال العنف والتمييز" (وجه الرحمة، ٢٣). يمكن أن يصبح كل مستشفى أو دار للعناية علامة مرئية ومكانًا لتعزيز ثقافة التلاقي والسلام، حيث تساهم تجربة المرض والألم، فضلًا عن الإعانة المهنية والأخوية، في تخطي كل حدود وكل انقسام.

وتشكل مثالًا على ذلك الراهبتان اللتان أعلنتا قديستين في شهر أيار مايو الفاتية: القديسة مريم الفونسين دانييل غطاس والقديسة مريم يسوع المصلوب بوادري، وهما من بنات الأرض المقدسة. فكانت الأولى شاهدة للوداعة والوحدة إذ قدمت شهادة واضحة عن أهمية أن نكون مسؤولين عن بعضنا البعض وأن نعيش لنخدم بعضنا. أما الثانية، المرأة المتواضعة والأمية، فكانت مطيعة للروح القدس وأصبحت أداة للتلاقي مع العالم المسلم.

أتمنى أن يحرك روح مريم، أم الرحمة، جميع الأشخاص الملتزمين في خدمة المرضى والمتألمين. "فلترافق عذوبة نظرتها كل واحد منا في هذه السنة المقدسة، كي تتمكّن جميعاً من إعادة اكتشاف فرح حنان الله" (وجه الرحمة، ٢٤) وحمله مطبوعاً في قلوبنا وتصرفاتنا. لنكل إلى شفاعاة العذراء المخاوف والمحن مرفقة بالأفراح والمواساة ولنرفع إليها صلواتنا كي تتعطف بنظرها الرؤوف نحونا، بالأخص في أوقات الألم، ولتجعلنا أهلاً للتأمل بوجه الرحمة، ابنها يسوع، اليوم وإلى الأبد.

وأمنحكم جميعاً بركاتي الرسولية مرفقةً بهذه الرسالة.

صدر عن الفاتيكان، 15 سبتمبر / أيلول 2015

ذكرى الطوباوية العذراء مريم الأم الحزينة

البابا فرنسيس

©جميع الحقوق محفوظة – حاضرة الفاتيكان 2015